أضرب الخبر المجازية

علمنا من المحاضرة السابقة أن المخاطَب عندما يكون خالي الذهن من أيِّ تصور مسبق، أو أنَّه موقن بمضمون الخبر فلا يأتيه شك فيما يلقى إليه نأتي بالخبر مجردا عن المؤكدات، أما إن كان شاكًا أو مترددًا فنأتي بالخبر مؤكدًا بمؤكد واحد، في حين عندما يكون المخاطَب منكرًا للحقيقة التي تلقى إليه فاننا نحتاج إلى تأكيد الخبر بمؤكدين أو أكثر، وفي أحيان كثيرة قد يخرج الخبر عن هذه الحقيقة فندعوه بالخبر المجازي، نحو:

ـ تنزيل خالي الذهن منزلة المتردد أو الشاك:

ومثال تنزيل خالي الذهن منزلة المتردد أو الشاك قوله تعالى: ﴿**وَما مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ ماتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلى أَعْقابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ**﴾، إذ إن أصحاب رسول الله (ﷺ) يعلمون جيدًا أنَّه رسول وأنه يموت مثلما مات الرسل قبله إلا أن تصرفهم يوم سمعوا بموت الرسول وهروبهم من المعركة مدبرين، كان حاله كحال من شك في خبر أن النبي محمد(ﷺ) ما هو إلا رسول وأنه لابد من أن يأتي عليه يوم يموت فيه، يقول الدكتور محمد أبو موسى معلقًا على مجيء الخبر هنا طلبيًا لا ابتدائيًا: "لما استعظموا موته صلوات الله وسلامه عليه حين أشيع ذلك وزلزلوا زلزالًا شديدًا كان حالهم هذا كحال من جهل هذه الحقيقة، وأغفل هذا الاعتقاد بل وأنكره فخوطبوا خطابًا قويًا وهم أصحاب فطرة سامية يحسنون سماع التراكيب؛ وقد لفتهم هذا التركيب إلى أنهم كأنهم جهلوا في دينهم أمرًا جللًا، وهو بشرية محمد، وأنه يجري عليه ما يجري على غيره من الأنبياء والرسل، والعبارة هنا عبارة أكثر امتلاء وأدخل في باب الاعتبارات وأجرى في مسالك البيان؛ لأنَّها تفيض بجملة معانٍ ففيها عتاب عنيف وفيها استجهال وإشارة إلى غفلتهم وأنَّهم لا يسلكون في المواقف الصعبة مسلكًا ينبثق من مضمرات قلوبهم ويلتزم بما ترسخ فيها من حقائق واعتقادات وأنهم يوشكون أن يكون لهم ظاهر مخالف لباطنهم، وأن أصول الاعتقاد توشك أن تهتز بالنوازل العارضة، مع أنكم لا تزالون في نضارة اليقين، ولا يزال صليل الوحي يتردد صداه في آفاقكم ".

إن مراعاة حال المخاطَب وهم الصحابة (رضي الله عنهم) في الآية السابقة هو الَّذِي جوَّز إطلاق تلك التعليلات إذ إن شكل الأُسْلُوب الخبري الإنكاري يتنافى مع حالِهم الَّذِي نعرفه.

وقد ينزل غير الظان منزلة الظان نتيجة لحال المتكلم لا حال المخاطب، ولعلَّ قول أبي نواس في مدح الأمين:

وَلَقَد نَهزْتُ مـــــــــعَ الغُـواةِ بـدَلْوِهمْ وأَسَــمْتُ ســرْحَ اللَّهــوِ حيــثُ أســاموا
وَبلَغتُ ما بَلَــغَ امــــــــــرُؤٌ بشَبابِهِ فــإذا عُصــــــــارةُ كــــــلَّ ذاكَ إثامُ

مصداق لما قيل آنفًا فقد أكَّدَ الشاعر كلامَه بمؤكِّدين هما: (اللام) و(قد) ليدفع ما استقر في ذهنه هو أولًا ومن ثمَّ في أذهان المخاطبين، فعندما يتحدث أبو نواس ـ بكلِّ ما عرف عنه من لهو ومجون ـ عن توبة في مرحلة متقدمة من عمره، أو عندما يعطي نصيحة ما لا تتوقع أن تصدر عنه فانه يحتاج إلى أن يدفع ما يتوقعه منكرًا لدى مَن يخاطبهم.

ـ تنزيل خالي الذهن منزلة المنكر:

قد ينزَّل خالي الذهن منزلة المنكر إن دخلَ الظنُّ في نفس المتكلم كما في قوله تعالى: ﴿**ما قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ ما أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً ما دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**﴾، قال الطبري: "قال الله تعالى ذكره: (**يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ**)؟ قال: فأُرعدت مفاصله، وخشى أن يكون قد قالها، فقال:(**سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ**)"، فالظنُّ قد دخل في نفس النبي عيسى (عليه السلام) كما لاحظنا من كلام الطبري السابق، لذا فقد نفى عن نفسه أولًا ما يستحق النفي وَدَلَّ عليه، ثم أثبت ما قاله لهم على وجه مباشر فنفى غيره ليكون قد نفى ما نسب إليه من دعوى الإلهية مرتين، ومن هنا كانت أهمية معرفة حال المتكلم في التوصل إلى التأويل المناسب والفهم الصحيح.

وقد لا تقل أهميةً معرفة حال المخاطَب عن معرفة حال المتكلم في إدراك أسرار النَّصِّ اللغوي، فالنبي لوط (عليه السلام) في قوله تعالى: ﴿**وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ**﴾، يعرف جيدًا بحال قومه وما يهرعون إليه من الفواحش، وهم من جانب آخر يعرفون بمعرفة لوط (عليه السلام) بأمرهم فهو ليس أمرًا خفيًا على طرفي الحديث، وكان المفروض أن يأتي خبر

قومه ابتدائيًا ليناسب حال متلقيه إلا أنَّهم قالوا: **(لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا)** فأكدوا كلامهم بمؤكِّدين، هما: اللام وقد، وقالوا أيضا: **(وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ)**، فأكدوه بمؤكِّدين أيضا، هما: **(إن)** و**(اللام)** ليردوا على محاولات لوط (عليه السلام) لدفعهم عمَّا يعتزموا فعله تلك المحاولات التي تمثلت تارة بعرض بناته: **(قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ)**، وتارة بتذكيرهم بالله (عزَّ وجلَّ) وضرورة تقوته: **(فَاتَّقُوا اللَّهَ)**، وتارة ثالثة بتعنيفهم: **(أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ)**.

إذن فقد نزَّله قومُهُ من منزلة العارف بأمرهم إلى منزلة المنكر اعتمادًا على موجِّهات نصِّيَّة سابقة تمثلت بإنكاره لفعلهم الشنيع هذا الَّذِي حاول ردّه بطرائق عملية مثل: عرضه لبناته وتذكيرهم بالله وتعنيفهم، ومن ثمَّ بنو كلامهم هم على هذه المقدمات النَّصِّية، في حين كان فهمنا لهذا النَّصِّ مبنيًا على التعارض بين الشكل الظاهر وهو توكيد قوم لوط (عليه السلام) لكلامهم ومعرفتنا بحاله (عليه السلام).

ومن أمثلة تنزيل خالي الذهن منزلة المنكر مراعاة لحال المخاطَب قوله تعالى:﴿**ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ**﴾، إذ إنَّ موت الإنسان إحدى الحقائق التي لا ينكرها أي شخص فلا تحتاج إلى تأكيد مضمونها بـ (إنَّ) و(اللام) لولا أنَّه رأى سبحانه وتعالى حال المخاطب اللاهي باللذات الدنيوية الزائلة فنزله منزلة من ينكر حقيقة الموت.

ـ تنزيل الشاك أو المنكر منزلة خالي الذهن:

من ذلك قوله تعالى: ﴿**يُسَبِّحُ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ**﴾، إذ أخبر الله سبحانه وتعالى عن هذه الحقائق العظيمة وهي أنَّه "يسبح لله كلّ ما في السموات السبع، وكل ما في الأرضين من خلقه، ويعظمه طوعًا وكرهًا... الَّذِي له ملك الدنيا والآخرة وسلطانهما، النافذ أمره في السموات والأرض وما فيهما...وهو الطاهر من كلِّ ما يضيف إليه المشركون به، ويصفونه به مما ليس من صفاته المبارك (الْعَزِيزِ) يعني الشديد في انتقامه من أعدائه(الْحَكِيم) في تدبيره خلقه، وتصريفه إياهم فيما هو أعلم به من مصالحهم"، بجملة خالية من المؤكدات على الرغم من أن الخطاب موجَّه إلى طائفتين من المخاطبين، هما: المؤمنون والجاحدون والشكل المتوقع لهذا الأُسْلُوب أن يحتوي على أداة أو أكثر من أدوات التأكيد ليتناسب وحال المنكرين إلَّا أنه سبحانه وتعالى قد جاء به على هذا الشكل إعلاءً لشأن المؤمنين وتجاهلًا منه لطائفة الجاحدين.